الجزء الحادي عشر		المجلد الرابع

المقتبس

كتاب العرب

او الرد على الشعوبية

لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من اهل القرن الخامس (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليما (قال) ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة جعلنا الله واياك على النعم شاكرين . وعند المحن والبلوى صابرين . وبالقسم من عطائه راضين . واعاذنا من فتنة العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبية فانها بفرط الحسد وغل الصدر تدفع العرب عن كل فضيلة وتلحق بها كل رذيلة وتغلو في القول وتسرف في الذم وتبهت بالكذب وتكابر العيان وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف وتغض

---

(١) وجده الشيخ جمال الدين القاسمي من علماء دمشق في مكتبة المرحوم شاكر افندي الحمراوي الدمشقي في مجموعة كتابات موقوفة ونحن نقلناها معنونًا عليه بكتاب ذم الحسد تأليف العلامة ابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة رحمه الله تعالى بخط مسند الشام في عصره الشيخ ابراهيم الجينيني الحنفي جامع الفتاوى الخيرية — من رجال القرن الثاني عشر — وقد حافظ رحمه الله على اصل تحريره الآخر حتى كتب في آخره ما مثاله . هذا آخر ما وجدته الخ .

من النبي صلى الله عليه وسلم اذا ذكر بالنجا . وتطرف منه على القذى . وتبعد من الله بقدر بعدها ممن قرب واصطفى . وفي الافراط الهلكة وفي الغلو البوار والحسد هو الداء العياء . واول ذنب عصي الله به في الارض والسماء . ومن تبين امر الحسد بعدل النظر اوجب سخطه على صاحب النعمة وعداوته لمؤتي الفضيلة لان الله تعالى يقول « نحن قسمنا بينهم معيشتهم ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا » فهو تبارك وتعالى باسط الرزق وقاسم الحظوظ والمبتدي بالعطا والمحسود آخذ ما أُعطي وجار الى غاية ما أُجري .

وقال ابن مسعود : لا تعادوا نعم الله قيل ومن يعادي نعم الله قال : حاسد الناس

وفي بعض الكتب يقول الله : الحاسد عدو نعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمي .

وقال ابن المقفع : الحاسد لا يبرح زارياً على نعمة الله لا يجد لها مزالا ويكدر على نفسه ما به فلا يجد لها طعماً ولا يزال ساخطاً على من لا يترضاه ومتسخطاً لما لا ينال فوقه فهو مكظوم هلعٌ جزوع ظالم اشبه شيء بمظلوم محروم الطلبة منغص المعيشة دائم السخطة لا بما قسم له يقنع ولا على ما لم يقسم له يغلب والمحسود يتقلب في فضل الله مباشراً للسرور ممهلاً فيه الى مدة لا يقدر الناس لها على قطع وانتقاص ولو صبر الحسود على ما به وصبر لجرته كان خيراً له لانه كلما همّ بخباء الله وكلما هم قذف بحجره وكلما اراد ان يطفئ نور الله اطفأه الله ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون .

ولله در القائل :

واذا اراد الله نشر فضيلة يوماً اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

ولم ار في هذه الشعوبية ارسخ عداوة ولا اشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة واوباش النبط وابناء اكرة القرى فاما اشراف العجم وذوو الاخطار منهم واهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

وقال رجل منهم لرجل من العرب : ان الشرف نسب والشريف من كل قوم نسيب الشريف من كل قوم : وانما هيجت السفلة منهم بذم العرب لان منهم قوماً تحلوا بحلية الادب فجالسوا الاشراف وقوم تسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان فدخلتهم الانفة لآدابهم والغضاضة لاقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم فمنهم من الحق نفسه باشراف العجم واعتزى الى ملوكهم واساورتهم ودخل في باب فسيح

لا تجاذب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه ومنهم من أتاه على خساسة بآبائه عن آبائه وينتحل الشرف لنفسه كما يكون من ذوي الشرف ويطعن على العرب وينتقصها ويستفرغ مجهوده في شتمها والإزراء بالمثالب والتحريف لكل مناقبها وحسناتها التي والعجمها النظر وإذا رآها تسلّم عليها فإن هو عرف خيرا ستره وإن خبر عاره وإن احتمل الكلام تأويلات صرفه إلى أقبحها وإن سمع سوءا نشره وإن لم يسمعه تقوّل عنه وإن لم يجده تخرّصه فهو كما قال القائل

إن يعلموا الخير يخفوه وإن علموا   شرا أذيع وإن لم يعلموا بهتوا

ومن ذا رحمك الله صفا فلم يكن له عيب وخلص فلم يكن فيه شوب.

وقيل لبعض الحكماء هل من أحد ليس فيه عيب فقال لا لأن الذي ليس فيه عيب هو الذي لا يموت وعاب الناس بعضهم بفضل عيبه وكالهم بحسب نقصه ويذيع عوراتهم ليكونوا شركاءه في عورته ولا شيء أحب إلى الفاسق من زلة العالم ولا إلى الخامل من عثرة الشريف قال الشاعر:

وأخذ عيب الناس من عيب نفسه   مراد لعمري إن أردت قريب

وقال آخر:

وأجرأ من رأيت بظهر غيب   على عيب الرجال ذوو العيوب

ولقد كان زياد بن أبي سفيان حين كثر طعن الناس عليه وعلى معاوية في استلحاقه عمل كتابا في المثالب لولده وقال من عيّركم فاقرعوه بمنقصته ومن عدد عليكم فأبكعوه وغلبوه فإن الشر بالشر يتقى والحديد بالحديد يفلح.

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى أغرى الناس بشتائم الناس والطعن بمثالب العرب وجعله في نسبه ونسبه الأقرب إليه حال نكره أن نذكرها فنكون كمن أمر ولم يأتمر وزجر عن الشيء ولم يزدجر وهي مشهورة ولكن كرهنا أن تدوّن في الكتب وتخلد على الدهر ولا سيما وهو رجل يحمل عنه العلم ويحتج بقوله في القرآن. ومن العجب أنه والعجب فكرا من أراد التأليف الغلطة سميعة والمعرفة مطلقه وجعل لأغراض الباطل في سورة النطق فقصد من المثالب قال قوس حاجب فحكاها منها ويري منها وبالعجب في ذلك إلى خساسة العود ودناءته وهذا لو كان في صاحب الغار والسوق حبه الزهور والمطلقات لرجع بالعيب على الآخذ لا على الشافع لأن الشافع لا يأتي الذي يدفع الخطر ما يجد في أكثر ما يأخذ والمغبون من عرف بالتقصير عن الكريم وإنما رهن على

العرب بإحسانه عنها من كف الأذى عن مملكته حتى يجيزوا ولتكشف عنهم السنة ولو كان ثمن القوس مائة ألف رأس من الغنم عن هذه السنة ما كان القوس إلا تحسيناً للمآثم بالقليل لأن سلاح الرجل هي عزه وتوقيه واستسلام المال أحسن من استسلام العز والشرف . وقد يدفع الرجل عاقلته ويرده الازدراء عن الأمر الفظيع فلا يجسر عليه خوفاً من السبة وأنفة من العار .

قال أبو عبيدة لما قتل وكيع بن أبي سود التميمي قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان بلغ ذلك سليمان وهو بمكة وهو حاج خطب الناس بمحمد عرفات وذكر غدر بني تميم وإسراعهم في الفتن وتوثبهم على السلطان وخلافهم له فقام الفرزدق ففتح رداءه وقال يا أمير المؤمنين هذا ردائي رهناً بوفاء تميم ومقامها على طاعتك فلما جاءت بيعة وكيع قال الفرزدق :

فدى لسيوف من تميم وفى بها ردائي وجلت عن وجوه الأهاتم

يريد الأهتم بن سمي التميمي ورهطه وهذا سيار بن عمرو بن جابر الفزاري ضمن لبعض الملوك ألف بعير دية أبيه ورهنه قوسه فقضاها عنه كل ذلك وساقها إليه وفيه يقول القائل :

ونحن رهنا القوس ثم تخلصت بألف على ظهر الفزاري أقرعا

وسيار هذا هو جد هرم الذي نافر إليه عامر وعلقمة . ومن هذا الباب قول جران وذكر اجتماعه مع نساء كان يأتيهن :

دعون بسواكي وقد قلن إنه سيوجد هذا عندكن فيعرف

يظن من لا يعرف هذا الخبر أنهن سألنه السواك ليعتقد عليهن فأخبرهن أنه سيوجد عندهن ويعرف أنه السواك عندهن وحده ولأن الأعراب أفطن قوم في الفاظه للمعنى الذي لا يخطر له وكيف يظن به وبين هذا وبينه بعد مستحلس بضروب من شجر المساويك لا تحصى فكيف يحل في لسانه سواهن عود هو يستطيب به ويختار ويتبع شجره ومن احتاج إلى سواك منه لم يشكله شيء ولم يحتج إلى طلبه والظن أنه نجدا تخالف منابته فيه ما ينبت الأسحل ومنه ما ينبت الأراك ومنه ما ينبت البشام فأهل كل ناحية منهم يستاكون بشجر بلدهم وكان جران العود معروفاً بسواك البشام يزورهن على حذر من مراد بعيد وهو يستاك من الشجر ما ينبت في بلده ولا ينبت في بلدهن فلا أخذن سواكه ليتذكرنه ويتحرجن إليه كما يفعل المحبون قال إن هذا

شيوجد عند كل واد وجد لم اله ثما ينبته البلد الذي اسكنه فاستدل به على زبرتي لما كن ويقصد بقول الشاعر :

يا ابنة عبد الله وابنة مالك ويا ابنة ذي البردين والفرس الورد

ليتضاحك بالشعر من يتهزى بالبردين والفرس الورد ويعارض ذلك بملوك فارس واسرتها وتجالها وبان ابرويز ارتبط تسعمائة وخمسين فيلاً على مرابطه وبلغت مخدته (٢) التي كان يشرف بها على المحل عليه الف الف من ذهب وخدمته الف جارية وقد جهل هذا معنى الشعر واخطأ في المعارضة وخرج الى ما ليس له فيه حظ ولا نصيب .

اما معنى الشعر فان ابا عبيدة ذكر ان وفود العرب اجتمعت عند النعمان بن المنذر فاخرج بردي محرّق وهو عمرو بن هند وقال ليقم اعز العرب قبيلة فيأخذهما فقام عامر بن احيمر بن بهدلة فاخذهما فاتزر بواحد وارتدى بآخر فقال له بم انت اعز العرب فقال العز والعدد من العرب في معد ثم في نزار ثم في مضر ثم في خندف ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب ثم في عوف ثم في بهدلة فمن انكر هذا من العرب فلينافرني فسكت الناس فقال النعمان هذه عشيرتك كما تزعم فكيف انت في اهل بيتك وفي بدنك فقال انا ابو عشرة وعم عشرة وخال عشرة فبني الاكابر عن الاصاغر والاصاغر عن الاكابر فاما انا في بدني فهذا شاهدي ثم وضع قدمه في الارض وقال من ازالها من مكانها فله مائة من الابل فلم يقم اليه احد من الناس فذهب بالبردين فسمي ذا البردين قال الفرزدق :

فما تم في سعد ولا آل مالك غلام اذا ما قيل لم يتبهلل
لهم وهب النعمان بردي محرّق بمجد معد والعديد المحصل

واما الفرس الورد فان الخيل حصون العرب ومنبت العز وسنام المجد وثمال العيال وبها تدرك الثار وعليها تصيد الوحش وكانوا يؤثرونها على الاولاد باللبن ويشدونها بالافنية للطلب والهرب وقد كنى الله عنها في كتابه بالخير لما فيها من الخير فقال حكاية عن نبيه سليمان صلى الله عليه وسلم «اني احببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب» يعني الخيل وبها كان شغل سليمان عن الصلاة حتى غربت الشمس وقال طفيل :

وللخيل ايام فمن يصطبر لها ويعرف لها ايامها الخير يعقب

وقال آخر :

ولقد علمت على توقي الردى ان الحصون الخيل لا مدر القرى
اني وجدت الخيل عزاً ظاهراً تنجي من الغمى ويكشفن الدجى
ويبتن بالثغر المخوف طلائعاً ويثبن للصعلوك جمة ذي الغنى
باتوا بصائرهم على اكتافهم وبصيرتي يعدو بها عتد وأى

والبصيرة الدم يريد انهم لم يدركوا الثار فثقل الدماء على اكتافهم وانه قد ادرك ثاره على فرسه وحدثني محمد بن عبيد قال حدثني سفيان بن عيينة عن شبيب بن غرقدة عن عروة البارقي قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة)

قال ابو محمد وليس لاحد مثل عتاق العرب ولا عند احد من الناس من العلم بها ما عندهم وسأذكر من ذلك شيئاً فيما بعد ان شاء الله . واذا كان للرجل منها جواد كريم شهر به وعرف كقيل العسجدي ولاحق وداحس والورد . وليس العجب من سرير كسرى وتاج العجم به وتصويرهم اياه في الصخور الصم وسط رعان الجبال . واذا رأيت العرب تنسب الى شيء خسيس في نفسه فليس ذلك الا لمعنى شريف فيه كقولهم لهنيدة بنت صعصعة عمة الفرزدق ذات الخمار فمن لم يعرف سبب الخمار ههنا يظن انها كانت تختمر دون نساء قومها فنسبت الى الخمار لذلك قال ابو عبيدة كانت هنيدة بنت صعصعة تقول من جاء من نساء العرب باربعة مثل اربعتي يحل لها ان تضع عندهم خمارها فصرمتي لها ابي صعصعة واخي غالب وخالي الاقرع بن حابس وزوجي الزبرقان بن بدر فسميت ذات الخمار لذلك .

وقال كان هند بن ابي هالة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم يقول : انا اكرم الناس اربعة ابي رسول الله وامي خديجة واختي فاطمة واخي القاسم فهؤلاء الاربعة لا اربعتها ولنا حظاء في المعارضة فان صاحب البردين لم يكن ملك العرب فيعارضنا عنه ملك العجم ولم يدع احد انه كان للعرب في دولة العجم مثل ملكها واموالها وعددها وسلاحها وحريرها وديباجها فيحتاج ان يذكر قبة ابرويز وجواريه وفرسه وقد كان هذا لاولئك كما ذكرتم جعله الله لهؤلاء فانتزوه واستلبوه واتخذوهم كما يلتحي القضيب والناسخ افضل من المنسوخ . وانما فخره بما ليس له فيه حظ ولا نصيب انما الفخر لملك فارس ابناء ملوكها وابناء عمالهم وكتابهم وحجابهم واساورتهم . فاما رجل من عرض العجم وعوامهم لا يعرف له نسب ولا يشهر له اب فما حظه في سرير كسرى وتاجه

وحريره وديباجه وليس هو من ذلك في مراح ولا مغدى ولا مظل ولا مأوى . قال قال لابن من العجم وكسرى من العجم فرسا وقال الشعبي ابن حاز الحمار وقال ايضاً لانى من الناس وكسرى من الناس كان وهذا سواء وما هو باولى بهذا النسب من العرب لان العرب ايضاً من الناس .

قال ابو عبيدة اجريت الخيل فطلع منها فرس سابق فجعل رجل من النظارة يكبر ويثب من الفرح فقال له رجل الى جانبه يا فتى هذا السابق فرسك قال لا ولكن اللجام لي .

وقال المسعودي قدم علينا اعراب وكانوا يأتون بخاتم أبيهما وأمهم فقويهم وكانوا يقولون رحم الله الملك وبلاداً فكنت لا أراهم حاجة فلست احتفى عن السبب بينكم وبين الى قالوا كان يسايرنا مرة بالامس فلقيت رجلاً كان استراها لكم فقالوا لا الا الله اكبر قالوا وما ذاك قلت لو اشتراها صارت رحماً ونسباً .

وقد كانت العجم رحمك الله في ذلك الزمان تملك الارض شرقاً وغرباً وبراً وبحراً الا قليلاً منها فاين الملوك هؤلاء الاشراف فاين الوضعاء والادنياء والكناسون والحجامون والدباغون والحاكة والزراع والمهان وهل كان ذوو الشرف في جملة الناس الا كالشعرة في جلد الثور اولين لذراريهم واعقابهم ان يدخلوا جميعاً ولم يبق منهم احد يزعم انه من الملوك والاشراف .

والعجب من هذه الشعوبية انهم الى اسحق بن ابرهيم صلى الله عليهما وسلم ويفخرون على العرب بانه ابن سارة الحرة وان اسمعيل ابا العرب ابن هاجر وهي امة وقال شاعرهم

في بلدة لم تصل عكل بها طنبا ولا خباء ولا عك وهمدان
ولا لجرم ولا لابناء من وطن لكنها لبني الاحرار اوطان
ارض يبني بها كسرى مساكنه فما بها من بني اللخناء انسان

فبنو الاحرار عندهم العجم من ولد اسحق واسحق لسارة وهي حرة وبنو اللخناء عندهم العرب لانهم من ولد اسمعيل واسمعيل لهاجر وهي امة قالوا واللخناء عند العرب الامة ولم يعلم هؤلاء بالجهل والتهور منهم هذه العداوة لاولياء الله والانبياء الخيرة الصفوة منه وقد غلطوا في التأويل على الامة وليس كل امة عند العرب لخناء انما اللخناء من الاماء الممتهنة في رعي الابل وسقيها وجمع الحطب وحمله واستقاء الماء والطحن والبناء ونحو ذلك من المهنة كما يقال الامة . كما وليس كل امة وكماء ولذا قيل لها لخناء لنتن ريحها ويقال لخن السقاء يلخن لخناً اذا تغير ريحه وانتن .

واما مثل هاجر التي طهرها الله من كل دنس وطيبها من كل دفر وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين اسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام اماً وجعلها لهما سلالة فهل يجوز لاحد فضلاً عن مسلم ان يطلق عليها الهجن ولو لم يكن الا ان ملك القبط منع بها سارة وكانت انفس امائه عنده واستشفعن لدينه لقد كان في ذلك دليل على انها لم تكن من الاماء المهن ولو جاز ان يطلق على كل امة هجنا جاز ان يقال لكل شريف ولدته امة هذا ابن الهجناء كما يقال هذا ابن الامة وقد ولدت الاماء الخلفاء والخيار والابرار مثل علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب والقاسم بن محمد بن ابي بكر الصديق وسالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب ·

حدثني سهل بن محمد قال حدثنا الاصمعي قال كان اهل المدينة يكرهون اتخاذ امهات الاولاد حتى نشأ فيهم هؤلاء الثلاثة ففاقوا اهل المدينة فقهاً وورعاً فرغب الناس في السراري والنساب لا يعرفون لاهل فارس ولا للنبط في اسحق بن ابراهيم حظاً لان اسحق تزوج رفقا بنت ناحور بن تارح وتارح هو آزر ورفقا بنت عمه فولدت له عيصو ويعقوب توأمين في بطن واحد فيعقوب هو اسرائيل الذي ولد الاسباط كلهم وكانوا اثني عشر رجلاً واولادهم جميعاً يدعون بنو اسرائيل وهم اهل الكتاب ليس لهؤلاء فيهم سبب ولا نسب وعيصو هو ابو الروم وكان الروم رجلاً اصفر شديد الصفرة في بياض ومن اجل ذلك سميت الروم بني الاصفر · قالوا وكانت ام الروم بنت اسماعيل ابن ابراهيم وولد من الروم خمسة نفر فكل من بارض الروم من نسل هؤلاء الرهط قالوا ونافسه يعقوب الى دعوة اسحق فصارت النبوة في ولده ودعا لعيصو بالنماء والكثرة فالروم كلها من ولده وبعض الناس يزعم ايضاً ان الاشبان من ولده وقالوا النبط بن ساروح بن ارغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح ويقال انه ابن ماش بن سام ابن نوح قالوا واهل فارس من ولد لاود بن ارم بن سام بن نوح وكان كثير الولد فنزل ارض فارس فاجناس الفرس كلهم من ولده فليس بين هؤلاء وبين اسحق بن ابراهيم على ما ذكر النسابون نسب يجمعهم الا سام بن نوح والناس يجتمعون في ولادة شيث بن آدم ثم في ولادة نوح ثم يتشعبون فولد نوح اربعة نفر سام وحام ويافث ويام فاما يام فهلك بالطوفان فلا عقب له وهو الذي قال له ابوه (يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) واما حام فان اباه لعنه ودعا عليه بان يكون عبداً لاخويه فحملت ذريته وسقطت فيه فهم النوبة وفزان والزغاوة واجناس السودان والسند والقبط واما يافث

فان اباه دعا له بالنماء والكثرة فولد الصقالبة والترك ويأجوج ومأجوج واممًا عدد الرمل والحصا في مشارق الارض . واما سام فبارك عليه فاشراف الناس من ولده منهم العماليق ومنهم الجبابرة والفراعنة بمصر وملوك فارس ومن ولد سام الانبياء جميعًا بعد نوح وهود وصالح وشعيب وابراهيم ومن بعده الى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . فالعرب وفارس يتساوون في هذه الجملة وتفضلها العرب بعدها بانها من ولد اسماعيل ابن ابراهيم فهي ادنى من خليل الله دنوة وامس به رحمًا .

ثم تتساوى العرب وفارس في ان الفريقين ملكوا وتفضلها العرب بان قواعد ملكها نبوة وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة . وتفضلها العرب بان ملكها ناسخ وملك فارس منسوخ وتفضلها بان ملكها متصل بالساعة وملك فارس محدود وتفضلها العرب بان ملكها واغل في اقاصي البلاد داخل في آفاق الارض وملك فارس شظية منه ليس فيه الشام ولا الجزيرة ولا خراسان في اكثر مددهم ولا اليمن الا في ايام وهرز وسيف ابن ذي يزن .

ومن عجيب امرهم ايضًا فخرهم على العرب بآدم بقول النبي صلى الله عليه وسلم لا تفضلوني عليه فانما انا حسنة من حسناته ثم بالانبياء وانهم من العجم الا اربعة نفر هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم وفي هذا القول وضع الحجر على غير اساس ومن اسس بنيانه على الباطل والغرور اوشك ان يتداعى وان يخر وظلم للعرب فاحش ومنه ادعاؤهم آدم كأن العرب ليسوا من ولده ومنه الفخر بموسى وعيسى وزكريا ويحيى واشباههم من بني اسرائيل وليس بين فارس وبين بني اسرائيل نسب على ما بينت لك ومنه دفعهم العرب عن قرابتهم بهؤلاء الانبياء وهم بنو عمومتهم وعصبتهم لان العرب بنو اسماعيل بن ابراهيم باجماع الناس وهم بنو اخي اسحق بن ابراهيم واولى به واحق بشرفه واولى بموسى وعيسى وداود وسليمان وجميع الانبياء من ولده وقال الله تعالى (ان الله اصطفى آدم ونوحًا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) فآل ابراهيم هم ولد اسحق وولد اسماعيل ثم قال (ذرية بعضها من بعض) فاعلمنا ان العرب وبني اسرائيل شيء واحد في النسب ومما اوحى الله الى موسى : اني مقيم لبني اسرائيل من اخوتهم مثلك اجعل كلامي في فيه . يريد انه يقيم لهم من العرب نبيًا مثل موسى يعني نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهذا علم من اعلامه وحجة من حججنا على اهل الكتاب من كتبهم فان قالوا في ذلك انه يقيم لهم من بني اسرائيل نبيًا

مثل موسى وقالوا ان بني اسرائيل بعضهم اخوة بعض لكنهم النظر لانه لو اراد ذلك لقال لهم من انفسهم ومنهم كما قال رجلاً لو اراد ان يبعث رسولاً من حدث لم يقل ما بعث رسولاً من اخوة حدث فان كان دفعهم ولد اسماعيل عن تشابك نسبهم بولد اسحق لنزول اسماعيل الحرم ونكاحه في جرهم فان القبائل قد تتنائى وتتفاصل وقد تتباين والرجل قد يتكلم في البعيد وقد يولد له من الاماء ولا تنقطع الارحام والانساب وان كان اسماعيل نطق بالعربية فليس اختلاف الناس في الالسنة يخرجهم عن نسب آبائهم واخوانهم وعشائرهم هؤلاء اهل السريانية قد خالفوا في اللسان اهل العبرانية وهؤلاء الروم كفرت بالله ولا شيء اقطع للعصمة من الكفر وتكلمت بالرومية ونزعت عن لسان آبائها وليس ذلك بمخرجها عن ولادة اسحق بن ابرهيم بل ان اسماعيل لم يكن اول من نطق بالعربية وانما اخذها عن اهل العربية لانهم من ولد يعرب بن قحطان وكان يعرب اول من تكلم بالعربية حين تبلبلت الالسن ببابل وسار حتى نزل اليمن في ولده ومن اتبعه من اهل بيته ثم لحق بعده جرهم بلسانه وشخص حتى نزل الحجاز .

حدثني ابو حاتم قال حدثني الاصمعي قال اخبرنا ابو عمرو بن العلاء قال تسع قبائل عادية طسم وجديس وعبيلة وثمود (الحجر والحساء) ووبار والعماليق وقحطان وجرهم وأميم .

وحدثني ابو حاتم قال حدثنا الاصمعي قال حدثنا ابن ابي الزناد عن رجل من جرهم قال : نحن بداة من الخلق لا يشركنا احد في اسمائنا يقول نحن اقدم العرب هؤلاء فصحاء العرب الذين فتق الله السنتهم بهذا اللسان وكانت انبياؤهم منهم ؟ هود وصالح وشعيب .

حدثني عبد الرحمن عن عبد المنعم عن ابيه عن وهب بن منبه انه سئل عن هود أكان ابا اليمن الذي ولدهم قال لا ولكنه اخو اليمن في التوراة فلما وقعت العصبية بين العرب وفخرت مضر بأبيها اسماعيل ادعت اليمن هوداً ليكون لهم والد من الانبياء . (قال) واما شعيب فمن ولد رهط من المؤمنين تبعوا ابرهيم لما هاجر الى الشام ولم يكن بينهم نسب في بني اسرائيل ولم تكن مدين قبيلة ولكنها امة بعث اليها فلما بوأ الله اسماعيل الحرم وهو طفل وامه معه مرت به رفقة من جرهم فرأوا ما لم يكونوا يعهدونه واخبرتهم هاجر بنسب الصبي وحاله وما اعطى الله اياه فيه وفيها فتبركوا به وتولوه وضموا اليهم اسماعيل فنشأ معهم ونكح فيهم ثم انكحوه فتكلم بلسانهم فقيل

نطق بالعربية الا ان آباءه رغبت في الامم تختلف في النسب كما تختلف اشباه من الزرع والدوح كما تقبل الشيء من اصولها والدليل على ان اصل اللسان لحمير انهم يقال لهم (العرب العاربة) ويقال لغيرهم (العرب المتعربة) يراد الداخلة في العرب الشبيهة بهم وكذلك معنى التفعل في اللغة يقال تنزر الرجل اذا دخل في نزار وتمضر اذا دخل في مضر وتقيس اذا دخل في قيس وقال الشاعر :

وقيس عيلان ومن تقيسا

ولو كان كل من نطق لسانا غير لسان قومه ونطق به طوعا من لسنهم وجب ان يكون كل من نطق بالعربية من العجم عربيا (وسأقول في الشرف بعدل القول وابين نسبه ولا اغض شيئا منه ولا اتجاوز به حده) فلا يعني من ليس في العجم ان ارضها لما تدعيه لها جهلتها ولا نحتها لما تقدم اليها منكرها واختصر القول والنصر على العيون والنكت ولا اعرض الاحاديث الطوال في خطب العرب وتعداد ايامها ووقائع اشرافها في حروب العجم ومفاخرها لان هذا وما اشبهه قد كثر في كتب الناس حتى اخلق ودرس حتى بلي لا سيما واكثر علمه الامم لا طريق لها ولا ثقة من الثقات والعروضين ليست تخرج من التكلف وتدل على الصنعة والرجوان لا يطلع دون العقول واهل النظر من كل آثار خوفه ولا نقص تحويه وما تبرأ بعده من العثرة والزلة الا ان يوفقني الله وما التوفيق الا به .

وعدل القول في الشرف ان الناس لاب وام خلقوا من تراب واعيدوا الى التراب وجروا في مجرى البول وطووا على الاقذار فهذا نسبهم الاعلى الذي يردع اهل العقول عن التعظيم والكبرياء ثم الى الله مرجعهم فتنقطع الانساب وتبطل الاحساب الا من كان حسبه تقوى الله وكانت مادته طاعة الله .

واما النسب الادنى الذي يقع فيه التفاضل بين الناس في حكم الدنيا فان الله خلق آدم من قبضة جميع الارض وفي الارض السهل والحزن والاحمر والاسود والخبيث والطيب يقول الله عز وجل (والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا) فجرت طبائع الارض في ولده فكان ذلك لاختلاف غرائزهم فمنهم الشجاع والجبان والبخيل والجواد والحيي والوقاح والحليم والعجول والدمث والعبوس والشكور والكفور وسببه لاختلاف الطبائع وعليه فيهم الابيض والاسود والاسمر والاحمر والاقشر والوسيم والخفيف على القلوب والثقيل والحبب الى الناس

من غير اصل والمعتمد عليهم من غير ذنوب وسبباً لاختلاف الشهوات والارادات فمنهم من يميل به الطبع الى العلم ومن يميل به الى المال ومن يميل به الى اللهو ومن يميل به الى النساء ومن يميل به الى الفروسية . ثم يختلفون ايضاً في ذلك فمنهم من يسرع الى فهمه الفقه ويبطئ عنه الحساب ومنهم من يخلق بفهمه الطب ويبعد عنه النحو . ومنهم من يتيسر له الدقيق الخفي ويتعاصى عليه الواضح الجلي ومنهم من يتعلم الفن من العلم فيرسخ في قلبه رسوخ النقر في الحجر وينقل ما هو اخف منه فيدرس دروس الرقم على الماء ومن طلبة المال من يطلبه بالتجارة ومن يطلبه بالحراثة ومن يطلبه بالسلطان ومن يطلبه بالحيلة فيتلف بالطمع الكاذب والناس اجهل الله المال ومن طلبة النساء من يريد المهفهفة ومن يريد الفناك ومن يريد الغرة الصغيرة ومن يريد النصف الوثيرة واعجب من هذا من ربما حبب اليه العجوز قال الشاعر :

عجوز عليها كبرة وملاحة اقاتلتي بالوجد وهي عجوز
عجوز لو ان الماء منها قريبها لما تركتنا بالمياه تجوز

ومن نوادر الفرق ان من الناس من يحب الذم كما يحب غيره المدح ويرتاح لهجائه كما يرتاح غيره للثناء ومنهم من يغري بذم قومه وسب نفسه وآبائه وشتم عشيرته منهم عميرة بن جعيل التغلبي وهو القائل :

كسا الله حيي تغلب ابنة وائل من اللؤم اظفاراً بطيئاً نصولها

ومنهم الحرمازي (١) وهو القائل :

ان بني الحرماز قوم فيهم عجز وتسليط على اخيهم
فابعث عليهم شاعراً يخزيهم يجعل منهم مثل علي فيهم

ومنهم الحطيئة وهو القائل في امه :

يا ليتها اذا شاخت تملكها اما الى جنة اما الى نار
بئست شيخي ولو اسكنتها حرماً ولا يربا ولو حلت بذي قار
لهم الوسق مشدوداً اسطنه كأنما وجهها قد طلي بالقار
خرقاء في الخير لا تهدى لوجهته وهي صناع الاذى في الاهل والجار

(لها بقية)

---

(١) يقال له الكذاب الحرمازي واسمه عبد الله بن الاعور وقيل له الكذاب لكذبه اه من طبقات الشعراء المؤلف